**النظريات التكوينية في علم الجريمة (1)**

أ . نظرية التكوين الطبيعي:

تمثل نظرية التكوين الطبيعي أول نظرية اتسمت بالعلمية في دراسة علاقة السلوك ببنية الشخص الجسمية والعقلية، أو ما يسمى"الفراسة" التي تعني التعرف على بواطن الأمور من ظواهرها. وهناك أدلة منذ أقدم العصور على وجود علم الفراسة، حيث كتب أبو الطب" أبو قراط "Hippocrates الطبيب اليوناني قبل عام"400 ق.م "عن اعتقاده في تأثير البنية في تشكيل الميول والأخلاق مما ينعكس على ملامح الوجه.وقسم"أبو قراط " الناس إلى أنماط أربعة تبعاً لكيمياء الدم وعلى النحو الآتي:

1. الصفراوي (الحاد المزاج) Choleric : ويتميز بحدة الطبع وتقلب المزاج. ( نسبة إلى المرارة الصفراءYellow bile من الكبد).

2. السوداوي (المتشائم)Melancholic : ويتميز بالاكتئاب والنظر إلى الحياة نظرة سوداء. (نسبة إلى المرارة السوداءBlack bile وهو الدم المتخثر من الطحال).

3. الليمفاوي أو البلغمي (المتبلّد)Phlegmatic : ويتميز ببرودة الطبع والشعور الجاف. (نسبة إلى البلغم Phlegm من الحلق).

4. الدموي ( المتفائل)Sanguine : ويتميز بالمرح والأمل. (نسبة إلى الدم Blood).

كذلك نجد أن" فيثاغورس "مارس الفراسة في اختيار تلاميذه، وأن" سقراط" Socrates اكتشف قدرات" أفلاطون "Plato من أول مقابلة ومن ملامح وجهه، وأن أول كتابة منظمة في هذا الموضوع كانت عن طريق" أرسطو" Aristotle"384-322 ق.م" الذي يعد أول من تنبأ بـ "علم فراسة إجرامي" Physiognomy حين أشار في كتابه"رسالة الروح" إلى إمكانية التعرف على أخلاق الإنسان من خلال بعض سماته الجسدية الظاهرة، مثل لون شعره ولون بشرته، وطول قامته أو غيرها من السمات البدنية الظاهرة.واهتم العرب بهذا العلم وأعطوه صبغة عربية خاصة فضلاً عما اكتسبوه من أقوال الفرس وسائر الشعوب الشرقية،ومن أهم كتب الفراسة العربية كتاب" الفراسة" للإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة "606"هـ وكتاب " السياسة في علم الفراسة " لمحمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة"727"هـ. وهناك آيات قرآنية كثيرة توجه نظرنا إلى علم الفراسة بمدلولها الحديث الذي يعبر عنه " القرآن الكريم " بألفاظ مثل" سيماهم"و" سنسمه"و" للمتوسمين"، واهتم "القرآن الكريم" كثيراً ببيان الإشارات التي تبدو بين الناس لبيان مايجول بخاطرهم والذي قد يتعارض تماماً مع ماتقوله ألسنتهم وفي ذلك قوله أَم حَسِبَ الذَِّينَ فِي قُلُوبِِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخرِجَ اللهُ أَضغَانَهُم وقوله أيضاً يُعرَفُ المُجرِمُونَ بِسِيمَاهُم فَيُؤخَذُ بِالنَّوَاصِي والأَقدَامِ وقوله أيضاً سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرطُومِ وغيرها من الآيات المحكمات التي تتضح فيها الفراسة.

وبالرغم من اهتمام الفلاسفة والكتّاب الأقدمين بالعلاقة بين السلوك والبنية الجسدية للمرء إلاّ أن توضيح الكيفية التي يمكن من خلالها فهم هذه العلاقة لم تظهر إلاّ عند ظهور نظرية التكوين الطبيعي التي نحن بصدد دراستها في هذا المقام.

لقد تطورت الاهتمامات السابقة حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر حين أصدر العالم الأكاديمي ورجل السياسة السويسري"جوهان كاسبار لافيتر"j Casper Lavater "1741- 1801" كتاباً في أربعة مجلدات عن علم الفراسة بعنوان " قطع فراسية" Physiognomical fragments عام " 1775"، وقد حظي هذا المؤلف بالاهتمام الكبير من قبل المتخصصين،وتطورت دراسات علم الفراسة وانصب اهتمامها على دراسة تقاطيع الوجه ومحاولة إيجاد العلاقة بين هذه التقاطيع وأنواع محددة من السلوك الإجرامي، التي أدت فيما بعد إلى ظهور الدراسات الفيرنولوجية التي يعد من أهم روادها الطبيب الجرّاح" فرانز جوزيف جال "F. J. Gall " 1758-1828" الذي وضع نظاماً محدداً لما يعرف الآن بـ"علم الفيرنولوجيا " Phrenology، ونشر في عام "1791" ما توصل إليه من معلومات عن العلاقة بين التكوين البنائي للرأس وبين وظائف المخ وما تشير إليه من اختلافات في الشخصية والنزعات الفطرية للأفراد واستعداداتهم السلوكية، حيث طبق أفكاره هذه على عدد من السجناء ونزلاء المصحات العقلية. وسرعان ما انتشرت أفكار هذا العالم إلى كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عن طريق " جون سبيرزيم" Spurzheim " 1776-1832" والطبيب"تشارلز كالدول"Ch. Caldwell "1772-1853" حيث انتشرت موضوعات هذا العلم بين جميع الأوساط ماساعد على نشر العديد من المؤلفات وترجمتها إلى العديد من اللغات.

النظرية:

لفهم تفاصيل هذه النظرية يمكن تلخيص أساسيات "علم الفيرنولوجيا" في الآتي:

1. يتطابق شكل وحجم الجمجمة الخارجي مع شكلها وحجمها الداخلي ومع المخ.

2. يتألف العقل من ملكات ووظائف.

3. هذه الوظائف تعتبر ذات علاقة بشكل المخ والجمجمة، وحيث إن المخ يعد عضو العقل والتفكير، فإن النتوءات التي وجدها "جال" على جماجم السجناء والمرضى العقليين تعد مؤشرات دالة على شكل وحجم الأعضاء التي تتحكم في الملكات والوظائف.

وقد توصل "جال " إلى حصر ستٍ وعشرين "26" ملكة عقلية "ذهنية " زاد عليها "سبيرزيم " تسع"9 " ملكات، ليصبح إجمالي عددها خمساً وثلاثين"35" وكمثال على تسميات وتحديد نوعية هذه الملكات والوظائف ذكر"جال " وسبيرزيم " ما يلي:

الشهوانية، حب الأسرة والإنجاب، الولوع بالحرب والقتال، حب التخريب والهدم، الولوع بالكسب، الحذر، احترام النفس، الشدة، الإحسان وحب الخير، البناء، المثالية، حب الزيف والتقليد ...الخ.

كما تقع هذه التقسيمات للملكات العقلية في ثلاث مجموعات، كل منها يتحكم فيها جزء من أجزاء المخ الذي تم تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء أو مناطق وهي:

1. منطقة الاستعدادات أو الميول والنزعات الفطرية الدنيا.

2. منطقة العواطف والمشاعر الأخلاقية.

3. منطقة الملكات الذهنية العقلية.

ويمكن تحديد علاقة هذه النظرية بالجريمة وفقاً لأطروحات"جال وسبيرزيم" التي ترى أن الجريمة تتحدد في الاستعدادات الشخصية أو الميل والنزعات الفطرية الدنيا بوصفها المتحكمة في الملكات والوظائف التالية:

"الشهوانية" الجنسية "، حب الأسرة والإنجاب، الولوع بالحرب والاقتتال، الكتمان، التخريب والهدم، الكسب واقتناء الأشياء، حب الزيف والتقليد، بالإضافة إلى ذلك أكد "كالدول " بأن هناك علاقة هرمية بين هذه الوظائف والملكات بحيث تسيطر الأعلى على الملكات الأدنى وعلى النحو الآتي:

"تسيطر المشاعر الأخلاقية وتتحكم في الاستعدادات والنزعات الفطرية الدنيا للإنسان، وتقوم الملكات الذهنية العقلية بالتعاون مع الإرادة والعزيمة الحرة بإنارة الطريق وترشيد وتوجيه الملكات والوظائف الذهنية وتتولى التحكم فيها وفرض السيطرة عليها جميعاً، مثال ذلك حينما تكون ملكة حب الكسب والاقتناء قوية لدى شخص ما دون أن يكون ذلك خاضعاً لسيطرة المشاعر الأخلاقية ودون سيطرة أو توجيه لتلك الملكة من قبل الملكات العقلية تكون النتيجة أن يصبح ذلك الشخص غير أمين ويكون الاحتمال كبيراً في ارتكابه جرائم سرقة أو خيانة. وحينما تقوى نزعة التخريب والهدم لدى شخص ما دون أن يتوفر له نفس القدر من المشاعر الأخلاقية والملكات العقلية أو دون أن تتوفر الإرادة الحرة فيمكن أن يرتكب الشخص جريمة القتل، كذلك الحال بالنسبة لنزعة الولوع بالحرب والاقتتال التي يمكن أن تؤدي إلى الاعتداء على الأشخاص والقتل، أمّا الشهوانية فيمكن أن تؤدي إلى جرائم السرقات والاعتداء على الأموال أو السرقة بالإكراه، ويمكن أن تؤدي نزعة الكتمان إلى النصب والاحتيال والخيانة إذا لم يرافقها سيطرة أخلاقية أو تحكم من قبل الملكات العقلية.

وخلاصة هذه النظرية، ترى أن مصدر الجريمة هو الاستعدادات والنزعات الفطرية المتعلقة بتلك المنطقة من المخ التي تتحكم بالنزعات الفطرية أو الدنيا ومتى ما تمت السيطرة على هذه النزعات والاستعدادات تم الحد من الجريمة والسلوك الانحرافي، وذلك يتم من خلال تقوية الملكات المرغوب فيها وتعزيزها وإهمال النزعات غير المرغوب فيها بواسطة تدريب وتلقين وتنشئة الأطفال والأحداث والراشدين على الأنماط السلوكية المرغوب فيها مثل احترام الآخرين والتراحم والتسامح والعدالة ..الخ.

نظرية التكوين الطبيعي في الميزان

بالرغم من محاسن هذه النظرية التي تحددت آثارها بالفترة التي ظهرت فيها "القرن التاسع عشر"وكونها فتحت الأبواب واسعة لدراسة الجريمة وفهم أسبابها ودوافعها، التي قادت إلى ظهور نظريات ومدارس علم النفس والتحليل النفسي، إلا أنها لا تخلو من عيوب أساسية كانت سبباً في إثارة العديد من الانتقادات الموجهة إليها ما أدّى إلى ضعفها وانهيارها، ومن ثم اندثارها بالكامل ومن أهم هذه الانتقادات ما يلي:

أ . اتصاف تحليلاتها بالجبرية والحتمية، فلو كان السلوك الإنساني يتحدد بواسطة المخ وخلاياه وأنسجته التي تعتمد وتخضع في نوعها ووظيفتها لقوانين الوراثة والنمو أو قوانين الحياة والفناء، لأصبح قدر الإنسان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتكوينه الحيوي والجيني.

ب. تأكيدها على أن الإنسان هو المهيمن على نفسه وذاته والمتحكم في مصيره، وهي المقولة التي كانت سائدة في الفترة التي ظهرت فيها بالرغم من محاولات "جال" الدفاعية عنها حينما أكد أن هذه النظرية لا تتصف بالحتمية التشاؤمية، وأن الإرادة الحرة القوية والضمير الإنساني الحي عنصران لا يعلى عليهما في توجيه السلوك الإنساني والتحكم في مصيره.

ت . أُتهمت النظرية بأن أفكارها غير علمية.